



الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة - مؤسس الدولة البحرينية الحديثة عام 1783

على كرامتهم وحسن معاملتهم. ويعكس هذا الموقف جانبًا من أسلوب الشيخ أحمد الفاتح في القيادة، القائم على الجمع بين الحزم والعفو عند المقدرة.

سنوات حكمه وإرساء دعائم الاستقرار عقب فتح البحرين، جمع الشيخ أحمد الفاتح البحرين والزبارة تحت حكمه، وأخذ يعمل على تنظيم شؤون الأقاليم الخاضعة لحكمه وتعزيز أمنها واستقرارها. وقد اتخذ من الزبارة مقرًا رئيسيًا له، مع متابعة شؤون البحرين واتخاذ الترتيبات اللازمة لإدارة الحكم فيها بما يكفل المحافظة على الاستقرار وحماية المصالح الاقتصادية والتجارية. وكان الشيخ أحمد الفاتح يتنقل بين الزبارة والبحرين لمتابعة شؤون الحكم، في ظل ما فرضته طبيعة المرحلة من مسؤوليات سياسية ودفاعية وإدارية.

كما أولى أهمية خاصة لتعزيز التحصينات الدفاعية وحماية الزبارة، إدراكًا لما تمثله من مركز سياسي وتجاري مهم، وما تفرضه طبيعة موقعها الجري من تحديات أمنية وعسكرية، حيث واصل الاهتمام بالمنشآت الدفاعية التي أقيمت في عهد والده الشيخ محمد بن خليفة الكبير، وأضاف إليها تحصينات جديدة أسهمت في تعزيز قدرة الزبارة على مواجهة الأخطار. ومن أبرز هذه الأعمال إقامة سورين يربطان القلعة بالزبارة، وتأمين الطريق الواقع بينهما، إلى جانب إنشاء تحصينات متتابعة لحماية الممر المائي الذي كانت تستخدمه السفن للوصول إلى المنطقة القريبة من القلعة. وقد شملت هذه الأعمال إقامة أبراج ومواقع دفاعية على جانبي الممر، بما أسهم في حماية السفن وتأمين وصول الإمدادات والمؤن، والمحافظة على قدرة الزبارة على مواجهة التهديدات البرية والبحرية. وتبرز أهمية هذه المنشآت في جمعها بين الأغراض الدفاعية والاحتياجات الاقتصادية والمعيشية، إذ لم تقتصر وظيفتها على حماية المدينة، وإنما أسهمت أيضًا في تأمين حركة السفن والإمدادات.

وفاته وانتقال الحكم إلى

الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة

استمر الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة في حكم البحرين والزبارة وتدير شؤونهما والمحافظة على نمائهما واستقرارهما حتى وافته المنية سنة 1209هـ الموافق 1795م، ودُفن رحمه الله في المنامة، بعد أن ترك إرثًا سياسيًا وتاريخيًا عظيمًا، تمثل في مد الحكم الخليفي إلى البحرين، والنهضة بها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وترسيخ مكانتها في المنطقة. وقد خلفه ابنه الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة الذي تولي مسؤولية حكم البحرين والزبارة، في مرحلة تطلبت المحافظة على ما تحقق من استقرار، ومواصلة تثبيت دعائم الدولة. وارتبط عهد الشيخ سلمان بن أحمد بتطورات عمرانية وسياسية أسهمت في تعزيز قوة الدولة الخليفية. ومن هنا، فإن أهمية عهد الشيخ أحمد الفاتح لا تنحصر في السنوات التي تولي خلالها الحكم، وإنما تتجلى أيضًا في الإرث الذي تركه، وفي قدرة الدولة التي أسسها على الاستمرار والتطور عبر الأجيال.

مكانته التاريخية وإرثه الوطني

تتجاوز المكانة التاريخية للشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة حدود الحدث العسكري الذي اقترن باسمه، فقد كان قائدًا ارتبط دوره بتحول سياسي وتاريخي أساسي في منطقة الخليج العربي، وأسهم في إرساء مرحلة جديدة من تاريخ مملكة البحرين. وقد تجلت قدراته القيادية في مراحل متعاقبة من حياته، بدءًا من مشاركته في تدبير شؤون الزبارة، مرورًا بتوليته الحكم وقيادة المواجهة العسكرية مع قوات نصر بن مذكور، وصولًا إلى فتح البحرين وتنظيم شؤون الحكم فيها. كما أظهرت مواقفه بعد الفتح جانبًا من حكمته السياسية، وقدرته على الجمع بين القوة العسكرية والنماء الاقتصادي والانسجام المجتمعي، والاهتمام بتثبيت الاستقرار وحماية المصالح العامة. ومن إرث التأسيس الذي أرساه الشيخ أحمد الفاتح، امتدت مسيرة الدولة البحرينية الحديثة، وشهدت مراحل متعاقبة من البناء والتطور السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي. وظل إرث الشيخ أحمد الفاتح حاضرًا في الذاكرة الوطنية بوصفه مؤسس الدولة البحرينية الحديثة، ورمزًا من رموز تاريخها، وقائدًا ارتبط اسمه ببداية عهد راسخ مبارك من الحكم والبناء والأزدهار. وقد امتدت هذه المسيرة حتى بلغت عهد حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين المعظم، الذي شهدت المملكة في ظل عهد جلالته الزاهر مرحلة بارزة من التطور السياسي والدستوري والمؤسسي، فقد حظي ميثاق العمل الوطني عام 2001م بتأييد شعبي واسع بلغت نسبته 98.4% ليسشكل محطة مفصلية جامعة في مسيرة الإصلاح والتطوير الوطني في مملكة البحرين، أعقبها تطورٌ في البناء الدستوري ومؤسسات الدولة. وهكذا تتصل في تاريخ المملكة محطات التأسيس والتطوير والتجديد، وتتجسد في استمرار الدولة وقدرتها على مواكبة متطلبات كل عصر، محافظة على هويتها وسيادتها وإرثها الوطني. ويبقى الشيخ أحمد الفاتح حاضرًا في الذاكرة البحرينية بوصفه مؤسس الدولة الحديثة، وتبقى مسيرتها الممتدة شاهداً على رسوخ الأساس الذي وضعه، وعلى ما أضافته الأجيال المتعاقبة من منجزات في خدمة الوطن.



في شؤونهم خلال تلك المرحلة، الأمر الذي أسهم في تنامي الاستياء من الأوضاع القائمة والتطلع إلى حكم يحقق الأمن والاستقرار ويحفظ الحقوق والمصالح. وفي أعقاب الانتصار في معركة الزبارة، استنجد عدد من وجهاء البحرين بالشيخ أحمد الفاتح، وطلبوا منه التدخل لإنهاء سيطرة نصر بن مذكور وتخليص الأهالي مما كانوا يعانونه.

وقد مثل هذا الاستنجد تعبيرًا عن تطلع الأهالي إلى مرحلة بعد الانتصار في معركة الزبارة، اتخذ الشيخ أحمد الفاتح بن محمد قراره بالتوجه إلى البحرين واضعًا نصب عينيه صون عروبة البحرين ورفع الظلم عن أهلها وإزالة حالة الاضطراب التي راقت سيطرة ابن مذكور على الجزر، مستندًا إلى ما حققه من تفوق عسكري ووحدة القبائل العربية والتفافها حول قيادته.

وفي شهر شعبان من عام 1197هـ الموافق يوليو 1783م، تقدمت القوات بقيادة الشيخ أحمد الفاتح نحو البحرين، حيث شهدت البلاد سلسلة من الأحداث العسكرية التي انتهت بإنهاء نفوذ نصر بن مذكور واستسلام الحاميات التابعة له. وتذكر المصادر التاريخية أن القوات التابعة لنصر بن مذكور لجأت إلى قلعة الديوان في المنامة وقلعة البحرين، اللتين أصبحتا من أبرز المواقع المرتبطة بأحداث الفتح. وقد فرضت قوات الشيخ أحمد الفاتح حصارًا على القلعتين، وتمكنت من إخضاع الحاميات الموجودة فيها، لتنتهي بذلك السيطرة السابقة وتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ البحرين. وقد قوبل الشيخ أحمد الفاتح بالترحيب من أهالي البحرين الذين وجدوا في ظله ملجأ لاستعادة الأمن والاستقرار والنماء الاقتصادي.

وبفكر البصرين عام 1783م، أرسى الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة أسس الدولة البحرينية الحديثة. ولقد شكّل هذا الحدث تحولًا تاريخيًا تجاوزت أبعاده نتائجَه المباشرة، إذ وضع الأساس لاستمرارية سياسية امتدت لأكثر من قرنين، وأصبح عام 1783م تاريخًا تأسيسيًا راسخًا في الذاكرة الوطنية لمملكة البحرين. وتتجلى القيمة التاريخية لهذا الفتح في أنه أرسى قاعدة الحكم الذي استمر منذ عام 1783م، وأصبح منطلقًا لمسيرة الدولة البحرينية الحديثة. ويكتسب هذا التاريخ حضوره في المناسبات الوطنية بوصفه ذكرى تأسيسية تستحضرها مملكة البحرين اعتزازًا بجذورها السياسية وامتدادها التاريخي. وفي كلمات جلالة الملك المعظم وخطاب الدولة الوطني، يقرن الاحتفاء بهذه الذكرى بتكريم المؤسس واستدكار ما توارثته الأجيال من مسؤولية الحفاظ على كيان الدولة ومكتسباتها. ويظل عام 1783م شاهدًا على بداية مرحلة مفصلية في تاريخ المملكة، وعلى امتداد مسيرة الحكم والبناء عبر القرون.

التسامح والمروءة في أعقاب الفتح

تكشف المصادر التاريخية المتعلقة بالمرحلة التي أعقبت فتح البحرين عن جانب مهم من شخصية الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة، تمثل فيما أظهره من تسامح ومروءة وحسن معاملة، بما يعكس إدراكه لأهمية استقرار الأوضاع بعد انتهاء المواجهات العسكرية. ومن أبرز المواقف التي حفظتها المصادر التاريخية استجابته لطلب أسرة نصر بن مذكور الحاق به، حيث أمر بتوفير السفن اللازمة لنقل أفرادها مع المحافظة

والتفت حول قيادته، لما عُرف عنه من صلابة في مواجهة الأطماع وشجاعة وحكمة وراية بشؤون الحكم. ولما كان له من سمعة طيبة في متابعة شؤون الرعية وإدارتها. وأظهر الشيخ أحمد الفاتح قدرة على المحافظة على قوة الزبارة وتعزيز استعداداتها الدفاعية، مستندًا إلى الخبرة التي اكتسبها خلال ملازمته والده وأخاه. وقد برزت شخصيته القيادية في قدرته على التعامل مع التحديات المتصاعدة، وتقدير المواقف السياسية والعسكرية، واتخاذ القرارات التي تكفل حماية الزبارة والمحافظة على أمنها واستقرارها. وكانت هذه المرحلة تمهيدًا للأحداث الكبرى التي شهدها عام 1783م، والتي كشفت عن قدراته العسكرية والسياسية، وانتهت بفتح البحرين وتأسيس الدولة البحرينية الحديثة.

تصاعد الأطماع واعتداء نصر بن مذكور على الزبارة أصبحت الزبارة، بما حققته من ازدهار اقتصادي سريع وتنام في نفوذها السياسي والبحري، قوة مؤثرة في المنطقة، وقد تُبع ذلك سيطرتها على مسارات التجارة البحرية وعلى مفاصات اللؤلؤ الأغنى والأفضل. وفي المقابل، كان أرخبيل البحرين يخضع لسيطرة نصر بن مذكور، ويعاني من تراجع اقتصادي واضطراب أحوال المجتمع. ومع تنامي مكانة الزبارة سياسيًا واقتصاديًا تصاعدت الأطماع، حتى وصلت إلى المواجهة العسكرية المباشرة، التي تمثلت في تعرض الزبارة في عام 1783م لاعتداء من القوات التابعة لنصر بن مذكور، في محاولة لإخضاعها وإنهاء النمو المتسارع للدولة الخليفية فيها.

وتورد المصادر التاريخية أن قوات نصر بن مذكور حاصرت الزبارة بحرًا، وبدأت القوات بالنزول برًا في منتصف شهر مايو عام 1783م، وحدثت المعركة الفاصلة في يوم الجمعة التالي من الشهر نفسه، إذ سعت تلك القوات إلى مباغته أهلها، وذلك بتوقيت الهجوم في وقت صلاة الجمعة. غير أن أخبار تحركات القوات المعتدية بلغت الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة، فبادر إلى اتخاذ التدابير الدفاعية اللازمة، وأحكم استعداداته العسكرية والتنominية، مستندًا إلى تحصينات الزبارة والثقاف أهلها والقبائل العربية حول قيادته.

وتذكر المصادر أن أهل الزبارة اعتصموا بتحصيناتهم، وأبدوا تصميمًا على النود عن دولتهم ورفض الشروط التي حاولت القوات المعتدية فرضها. وأمام هذا الموقف، قاد الشيخ أحمد الفاتح بن محمد حرب الزبارة ووضع خطة عسكرية محكمة مكّنته من التصدي للهجوم ثم الانتقال إلى الهجوم المضاد، ما أدى إلى اضطراب صفوف القوات المعتدية وانهزامها. وتشير المصادر التاريخية إلى مقتل محمد، ابن أخي نصر بن مذكور، الذي كان يتولى قيادة جيش عمه.

وقد حقق هذا الانتصار نتائج سياسية وعسكرية مهمة، إذ عزز مكانة الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة في قلوب أهل الزبارة خصوصًا وأهل المناطق المحيطة بها عمومًا، ورسّخ ثقة القبائل العربية بقيادته، وأكد قدرة الزبارة على الدفاع عن نفسها في مواجهة التهديدات الخارجية. كما أحدثت نتائج المعركة تحولًا في موازين القوى، ومهدت لمرحلة جديدة من الأحداث انتهت بفتح البحرين في العام نفسه.

أوضاع البحرين قبيل الفتح

واستنجد أهلها بالشيخ أحمد الفاتح

شهدت جزر البحرين في المرحلة السابقة لفتحها عام 1783م ظروفًا سياسية مضطربة في ظل سيطرة نصر بن مذكور، وتورد المصادر التاريخية ما عاناه أهل البحرين من مظالم واضطراب

يحتل الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة بمكانة عالية في التاريخ الوطني لمملكة البحرين بوصفه مؤسس الدولة البحرينية الحديثة عام 1197هـ الموافق 1783م، وقائدًا ارتبط اسمه بمرحلة مفصلية أرسست أسس حكم آل خليفة الكرام لأرخبيل البحرين. ومنذ ذلك التاريخ، تواصلت مسيرة الدولة البحرينية الحديثة عبر أجيال تعاقبت على صون وحدتها وترسيخ دعائمها، وصولًا إلى عهد حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين المعظم، الذي أضفى بمشروعه الإصلاحي التنموي الشامل أبعادًا متجددة على مسيرة البناء الوطني، وعزّز مؤسسات الدولة الدستورية والتنموية، مستندًا إلى إرث تاريخي راسخ تتصل فيه مسؤولية الحاضر بأمانة التأسيس.

وقد برز الشيخ أحمد الفاتح في مرحلة شهدت فيها منطقة الخليج العربي تحولات سياسية واقتصادية واسعة، وتنافسًا بين القوى الإقليمية على المراكز التجارية وطرق الملاحة البحرية ومفاصات اللؤلؤ. وفي خضم تلك التحولات، استطاع أن يجمع بين الحنكة السياسية والقدرة العسكرية وحسن التدبير، وأن يقود الأحداث التي مكنته من فتح البحرين وإرساء عهد جديد في تاريخها العريق.

ولم تقتصر أهمية الشيخ أحمد الفاتح على الانتصارات العسكرية التي حققها بعودة البحرين إلى محيطها العربي، وإنما امتدت إلى ما أرساه من أسس سياسية وإدارية ودفاعية، وما أظهره من حكمة في التعامل مع الظروف التي أعقبت الفتح، بما أسهم في ترسيخ الاستقرار والنماء. وقد خلد فتحه للبحرين بالعبارة التاريخية الشهيرة: «أحمد صار في أوال خليفة»، التي أرّخ بها لعام الفتح وفق حساب الجمل (إذ يبلغ مجموع قيم حروفها 1197، وهو عام الفتح الهجري). لتبقى شاهدًا على واحدة من أبرز المحطات التأسيسية في تاريخ مملكة البحرين.

نسبه ونشأته:

وُلد الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، ونشأ في كنف أبيه حاكم الزبارة ومؤسسها الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة، الذي يرجع نسبه إلى جميلة من العمارات من بني تغلب بن وائل، وكان للشيخ محمد بن خليفة دور رئيسي في تشكيل المشهد السياسي والاقتصادي في منطقة الخليج العربي، حيث بايعته القبائل العربية حاكمًا وقائدًا لها. فأسس الزبارة ووطن أركانها وعمرها بحكمه الرشيد، وقد عُرف عن الشيخ محمد بن خليفة الشجاعة والعزم ورجاحة العقل والورع، فأحسن تدبير شؤون رعيته، وأكرم علماءهم، وأنشأ المساجد والمدارس وغير ذلك من المنشآت المهمة، وبني قلعة (صباح) على اسم قلعتهم في الهدار بنجد، وتسمى أيضًا قلعة (مرير) نسبة إلى الماء الذي بنيت حوله، واتخذها مركزًا لحمايتهم، وأصبحت الزبارة في عهده مركزًا سياسيًا واقتصاديًا مزدهرًا، واستقطبت التجار والسكان بفضل سياسات الدولة الخليفية التي كرست حرية التجارة وأصلت مبدأ التسامح الديني، ولما كان لها من موقع استراتيجي وصلات تجارية واسعة، وفي هذه البيئة نشأ الشيخ أحمد، فارسًا وقائدًا، قريبًا من شؤون الحكم ومطلعًا على شؤون الرعية وواعيًا للتحديات والأطماع السياسية والعسكرية والاقتصادية تجاه الزبارة.

الزبارة وازدهار حكم العائلة المالكة الكريمة

أسهمت قيادة آل خليفة للزبارة في تعزيز مكانتها، من خلال توفير الأمن والاستقرار، وتنظيم شؤون الحكم، وتحسين المدينة، وتهيئة الظروف الملائمة لازدهار التجارة واستقطاب السكان. ومع اتساع نشاطها التجاري وتنامي مكانتها الاقتصادية، أصبحت الزبارة مركزًا مؤثرًا في التوازنات السياسية والاقتصادية في الخليج العربي، وهو ما مهد لها الطريق لبيسط نفوذها على طرق التجارة والملاحة البحرية ومفاصات اللؤلؤ، ما جعلها محط أطماع القوى المحيطة بها.

وفي خضم هذه التطورات، وافت المنية الشيخ محمد بن خليفة الكبير عام 1772م، فتولى نجله الشيخ خليفة بن محمد آل خليفة مقاليد الحكم، وسار على نهج والده في رعاية العلم والعلماء، وتنشيط التجارة، وتعزيز مكانة الزبارة. وقد أولى الشيخ خليفة بن محمد اهتمامًا خاصًا بالمؤسسات العلمية، وخصّ مدارس الزبارة بأوقاف تدعم استمرار رسالتها التعليمية، كما استفاد من الظروف السياسية والاقتصادية التي شهدتها البصرة في استقطاب مزيد من التجار والعلماء إلى الزبارة.

وخلال هذه المرحلة، لازم الشيخ أحمد الفاتح بن محمد أخاه الشيخ خليفة بن محمد، وشارك في تدبير شؤون الحكم، وكان يتوب عنه في حكم الزبارة أثناء غيابه، الأمر الذي أتاح له اكتساب خبرة عملية في القيادة والإدارة والتعامل مع التحديات السياسية والعسكرية.

توليئه الحكم وبروز شخصيته القيادية

تشير المصادر التاريخية إلى أن الشيخ أحمد الفاتح بن محمد تولى إدارة الزبارة عندما غادر أخوه الشيخ خليفة بن محمد لأداء فريضة الحج، وهي الرحلة التي وافته المنية خلالها. وقد مثلت وفاة الشيخ خليفة بن محمد مرحلة دقيقة في تاريخ الزبارة بالنظر إلى مكانتها المتنامية، وما كانت تواجهه من تحديات وأطماع إقليمية. وفي تلك الظروف، آل الحكم إلى الشيخ أحمد الفاتح بن محمد آل خليفة، وببايعته القبائل العربية